العمارة الليبية البونية الأضرحة نموذجا

د. عمروس فريدة•

إن التطرق لموضوع الإنجازات الحضارية الريفية يجعلنا نلاحظ أنها بعيدة عن المراكز السياسية والثقافية ولا تشارك في حيوية المدينة إلا بطريقة ثانوية. يمكننا تفسير هذا الانعزال الإرادي كنوع من الحرية.

تنتشر الأضرحة الليبية* البونية عبر مساحات شاسعة بعيدة عن التمركز السكاني، هذا ما يؤكد أهمية المكانة الاجتماعية التي حظيت بها الشخصيات المدفونة في هذه الأضرحة التي تمتاز بفخامة وجمال هندستها.

إذا ما حاولنا القيام بدراسة دقيقة لانتشار هذه الأضرحة، فإننا نلاحظ أن توزيعها لم يكن صدفة بل كان إختيار مميز.

شيدت معظم هذه الأضرحة في فترات حكم أكبر الملوك النوميديين وخلفائهم أي ما بين ٢٠٨ ق.م إلى ١٤٨ ق.م عندما عرفت المملكة النوميدية توسعا كبيرا من الحدود الغربية للأراضي المورية إلى غاية الإقليم التريبوليتاني. (أنظر الخريطة).

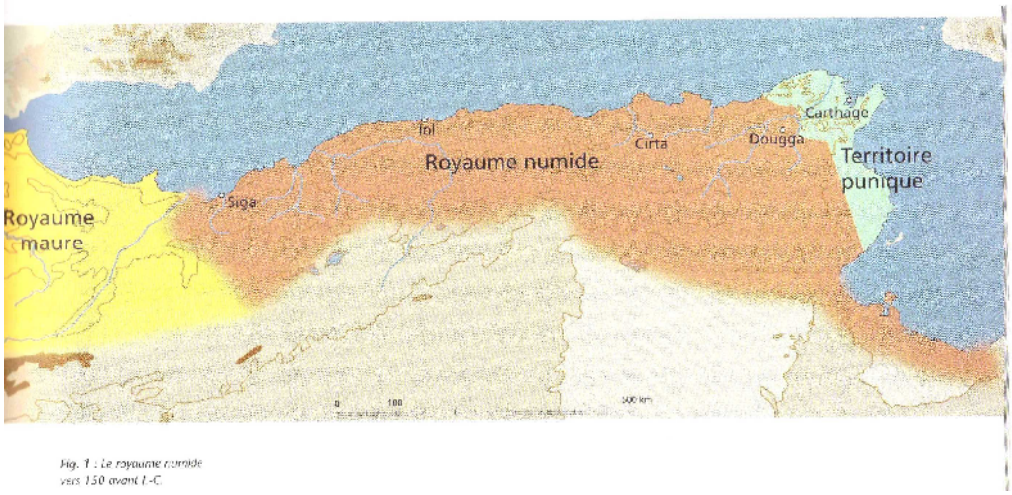

Fig. 1 : Le royaume numide vers 150 avant J.-C.

• معهد الآثار جامعة الجزائر

* نقصد به محلي، ذكر في النصوص القديمة مثل هيرودوت، استعمله الباحثون كمصطلح للتعريف بحضارة المغرب القديم

كما عرفت هذه المباني الجنائزية تطورا وتنوعا كبيرين نلمس فيه التأثير الفنيقي والإغريقي المسيطرين على غرب البحر المتوسط. ولقد تجسد هذا التأثير في بعض العناصر الهندسية المتمثلة في أنواع تيجان الأعمدة ومكونات النضد (architrave) وغيرها من الأشكال الزخرفية ، واستغل المهندسون المحليون خبرة واجتهاد المهندسين الأجانب في بنائهم لهذه المعالم، وحاولوا أن يوفقوا إلى حد كبير بين مظاهر الحضارة الفنيقية والإغريقية، والحضارة والتقاليد الهندسية المحلية.

عرفت هذه المعالم الجنائزية أنواعا وأشكالا متعددة منها الدائرية والهرمية.

فالمعالم الدائرية تظهر لنا على شكل أسطوانة مزينة بأعمدة ومتوجة بمخروط مدرج تستمد أصالتها من شكل البازينية (Bazina) البدائي ذات الأصل المحل.

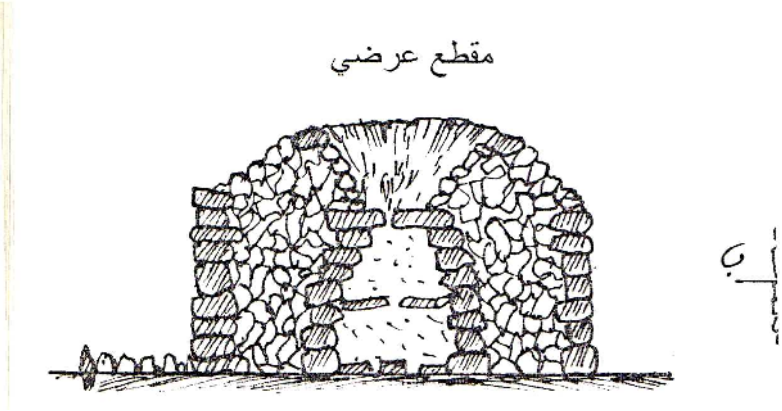

بازينة ذات قاعدة أسطوانية و فوهة بعين الحمار (عن كامس ق.)

ومن أقدم هذه الأنواع، ضـــريح المدغـــاسن، الذي يعود تاريخه إلى نهاية القرن الرابع ق.م.

موقع الضريح :

يقع بمنطقة الشرق الجزائري على بعد ٣٥كلم شمال غرب ولاية باتنة و ١٠٠كلم جنوب شرق ولاية قسنطينة، يحده من الشمال جبل عازم ومن الجنوب جبل تافروت ومن الشرق سبخة الجندلي المذكورة في المصادر القديمة بإسم Lacus Regius [1] بمعنى البحيرة الملكية.

[1] – ELBEKRI, Description de l'Af septentrionale, tra, Guki, de Slane,Paris 1965, P.107

الشكل العام للمبنى :

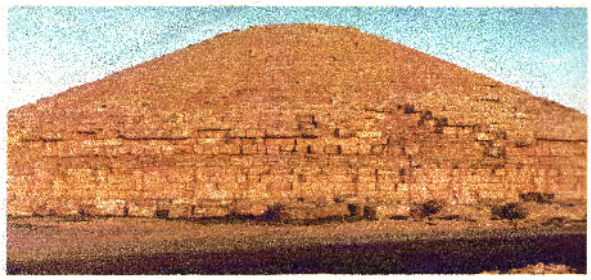

صورة رقم (34) الشكل الخارجي للمدغاسن في حالة حفظ لابأس بها على العموم

صورة رقم (35) منظر عام للمدغاسن

عبارة عن أسطوانة، بلغ ارتفاعها حوالي ٤,٤٣م وقطرها يعادل ٥٨,٨٥م، مزينة بستين عمود من الطراز الدوري.

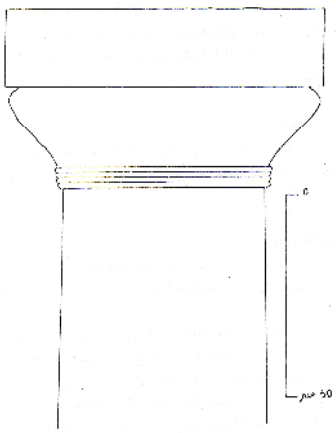

جزء من جذع عمود والتاج
ضريح المدغاسن
حسب كامبس .

Camps(G), Nouvelles observations sur l’age et l’architecture du Medracen P :484

وثلاثة أبواب وهمية تظهر على الواجهة الجنوبية والشرقية والشمالية الشرقية . كما زينت بطوق ذات عنق مصرية يفصل بين الأسطوانة والمخروط المدرج.

القاعدة الأسطوانية المتكونة من الأعمدة الدورية يعلوها جانز أعمدة ثم الكورنيش المصرية - المدغاسن -

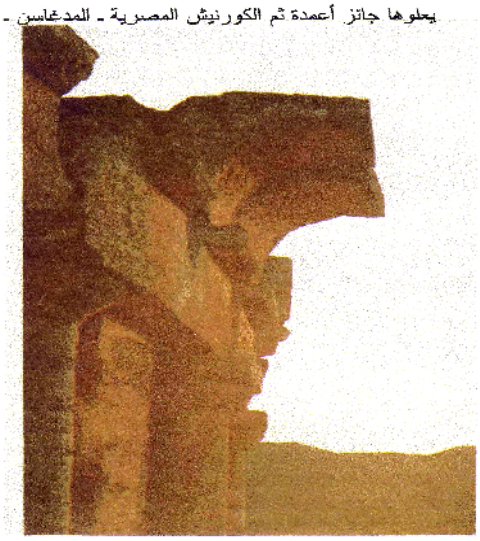

منظر جانبي بين الكورنيش ذات الحلق المصري - المدغاسن -

الصورة رقم (٠٢)

أما الارتفاع الإجمالي للمبنى فيعادل ١٨,٣٥م بني بحجارة مصقولة ضخمة ومثبة فيما بينها بواسطة مماسك من الرصاص.

الهيكل الداخلي للمبنى :

يوجد باب المبنى في الجهة الشرقية وعلى المستوى الثالث من الجزء المخروطي، أنظر يفتح على سلم بإحدى عشرة درجة يؤدي إلى رواق ثم الغرفة الجنائزية التي لها شكل مستطيل تتراوح أبعادها ما بين ٣٠,٣٠م طولا على ١,٤٥م عرضا، وتتوسط المبنى .

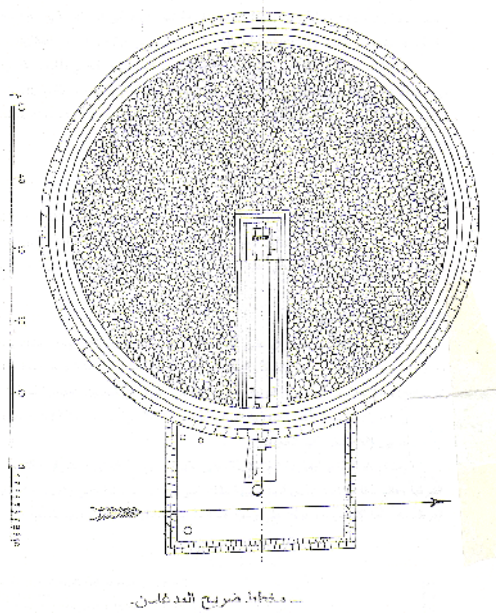

Colonel Bruno, op.it. P303-305

الطابع المعماري للضريح :

يتميز الطابع المعماري لضريح المدغاسن بخاصية مزدوجة ما بين العمارة المحلية من حيث الشكل العلم الذي يعتبر بازينة كبيرة ذات قاعدة أسطوانية وكذا العناصر المعمارية البونية مثل الأعمدة الدورية التي اقتبسوها من عمارة إغريق صقلية والأبواب الوهمية والطوق ذات الحلية المصرية.

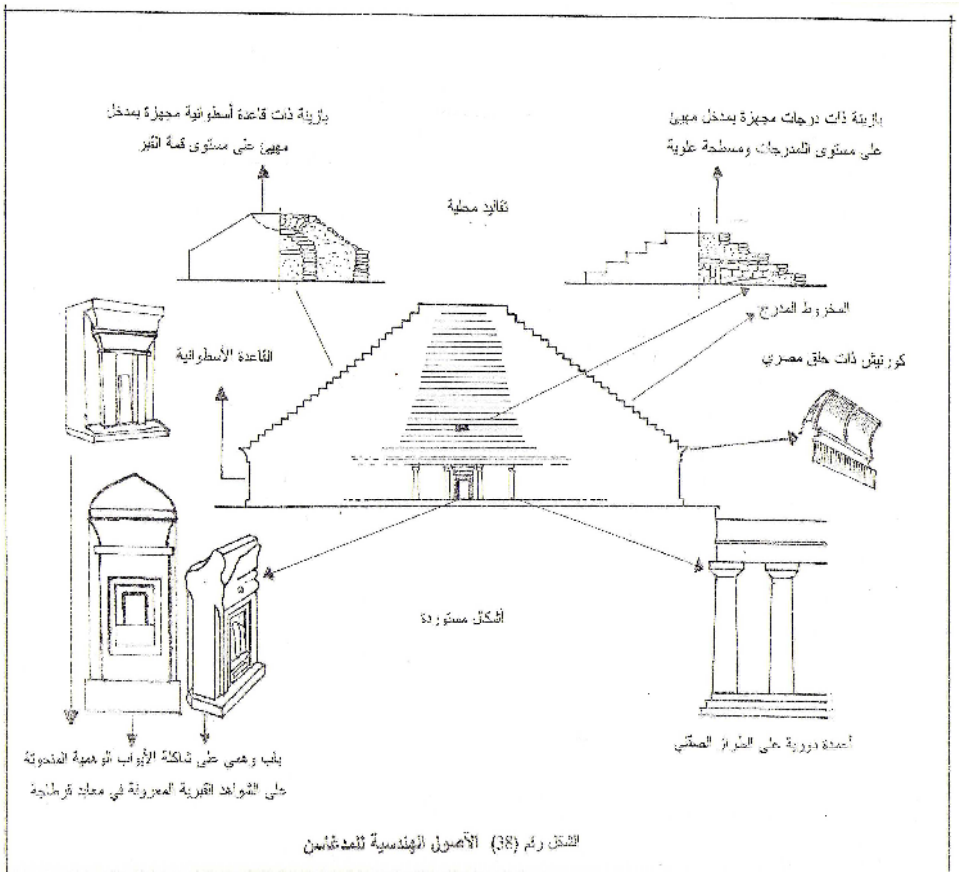

الشكل رقم (38) الأصول الهندسية للمدشامن

الضريح الملكي الموريطاني :

يتواجد هذا الضريح ما بين إكوزيوم (مدينة الجزائر العتيقة) وايـــيـــول (مدينة شرشال العتيقة) ويعلو سطح البحر بحوالي ٢٦١م، ذكر في المصادر القديمة. مظهره الخارجي على شكل أسطوانة متوجة بمخروط مدرج، يحتوي على أعمدة من الطراز الأيوني.

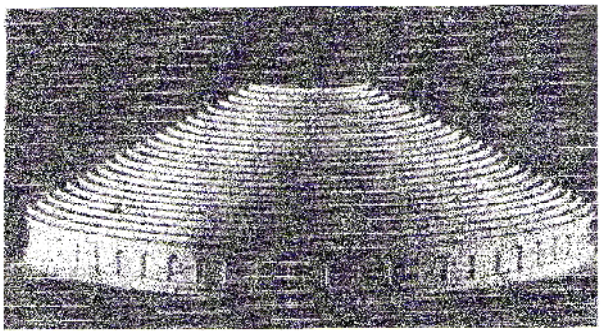

صورة رقم (38) إعادة تشكيل المدغاسن حسب راكوب
(Rakob, op. cit, p. 450-451 .)

صورة رقم (39) الضريح الملكي الموريطاني (قبر الرومية) ـ تيبازة ـ

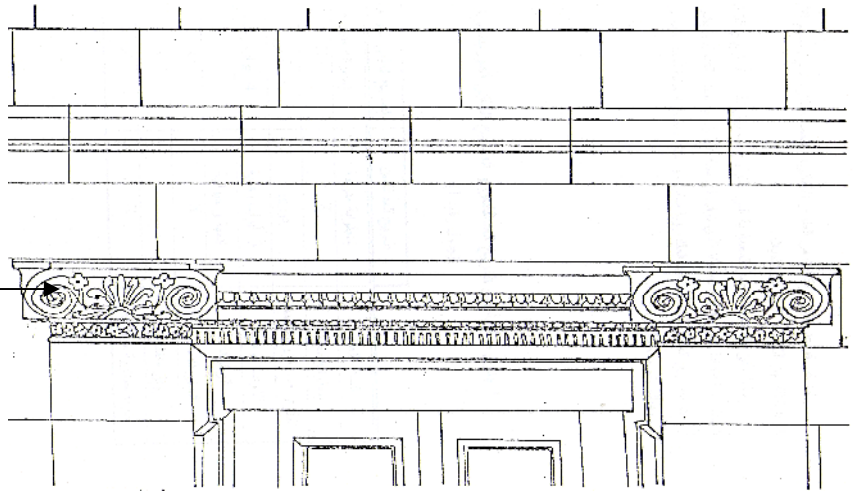

وأربعة أبواب وهمية مزينة بستين عـــمـــود متواجدة في الأقطاب الأربعة مقاساته جد معتبرة حيث يبلغ قطرها ٦٤م و إرتفاعها حاليا ٣٣م.

صورة رقم (41) الباب الوهمي الشرقي أين نرى بوضوح الزخرف الناتئ الذي يشبه الصليب ، وهو الذي كان وراء تسمية الفرنسيين والإسبان للضريح بقبر المسيحية

الهيكل الداخلي للمبنى :

نجد المدخل في الجهة الشرقية وتحت الباب الوهمي،كما هو موجود في الصورة.

المدخل السري للضريح

و يؤدي إلى ممر ضيق، يفتح على غرفة كبيرة موجهة شرق-غرب سميت ببهو الأسود وتؤدي إلى ممر ثاني ضيق ينتهي بسلم من ٧ درجات يصل إلى الرواق المطافي الذي يبلغ طوله ١٤٩م وعرضه ٢م وعلو يصل إلى ٢,٤٢م.

ويرسم هذا الرواق دائرة تكاد تكون كاملة، تنطلق من الباب الحقيقي الشرقي ثم تمر على الأبواب الوهمية الشمالية والغربية ثم الجنوبية، وعند اقترابها من نقطة الانطلاق، تنحني نحو مركز المبنى حيث توجد الغرفة الجنائزية التي تتوسطه.

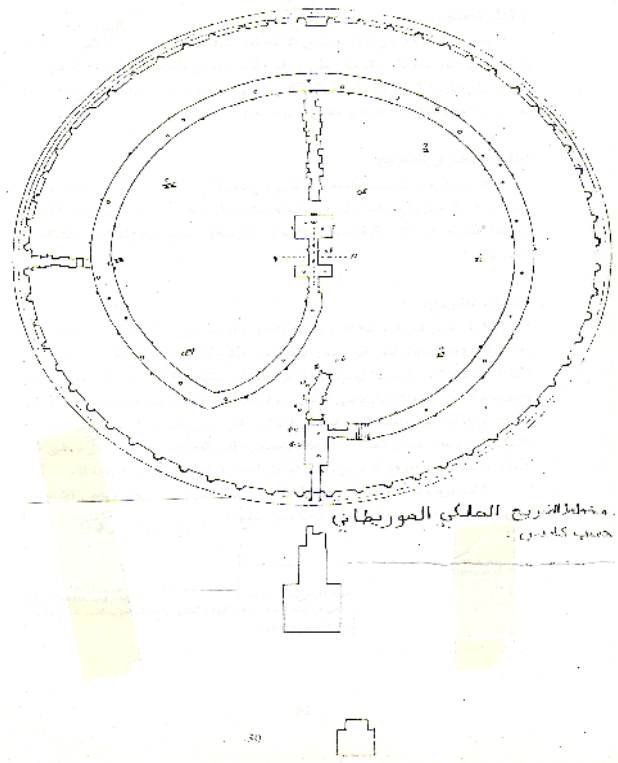

Camps(G), aux origines de la berberie Monuments et rites funéraires protohistoriques Paris 1962, p 163.

الطابع المعماري :

من خلال العناصر المعمارية المكونة للضريح الملكي الموريطاني، نلاحظ أنه إستمد أصالته من شكل البازينة المحلية، وتأثر بحضارات البحر المتوسط.

من خلال مثال الضريح الموريطاني، وضريح المدغاسن يرى بعض الباحثين أمثال قوتيي(Gautier) إنهما يستمدان عمارتهما من الأهرامات المصرية، بينما يرى آخرون أمثال بيكار Picard ، أنها تنتمي إلى عائلة الأضرحة ذات الأصل الاسيوي دخلت قرطاجة عن طريق الفنيقيين.

فصحيح أن بعض المعالم الجنائزية ذات الشكل الأسطواني قد وجدت في بعض الأقاليم الأسيوية، لكن الضريحين المذكورين أعلاه يستمدان أصالتهما أكثر من العمارة المحلية القديمة حتى إن كانت انجازات بونية أو إغريقية إلا أن بنيتها الداخلية والخارجية تشهد على تقليد معماري محلي لا يزال موجودا، يتمثل في بازينات كبيرة

ذات قاعدة أسطوانية تنحدر من قبور ذات شكل التلال Tumuli وقبر التل ما هو إلا الشكل البدائي للقبر المحلي القديم ، ومن ثم فإن البازينا ما هي إلا شكل محلي متطور للقبر التومولوس ذو التغطية الخارجية، وتحمل بعض التغيرات الطفيفة المتمثلة في التأثيرات المتوسطية، وأطلق عليها الباحث الفرنسي كامبس G. Camps إسم الأضرحة ذات التقاليد البربرية[1] .

طبعت التأثيرات المتوسطية العمارة الخارجية للضريح المدغاسن والضريح الملكي الموريطاني حيث استعملت في البناء حجارة مصقولة جيدة مع عناصر زخرفية تتمثل في تيجان الأعمدة ذات الطراز الدوري والأيوني، إضافة إلى الكرنيش أو الطوق ذو العنق المصرية، والأبواب الوهمية، ثم إستخدام المخالب المعدنية.

بالرغم من هذه التأثيرات الحضارية المختلفة، فإن العمارة الليبية المحلية قد أثبتت وفرضت وجودها جيدا في الزمان والمكان بحيث لدينا أمثلة عديدة لمثل هذه المعالم التي تعود إلى فترة ما بعد الاحتلال الروماني والتي تبين جليا تعايش هذه البوادر والعناصر المحلية، مثل قبور جدارات الموجودة بمنطقة فرندة ولاية تيارت (غرب الجزائر) التي تعود إلى القرنيين الخامس والسابع ميلاديين.

وينضم أيضا لهذه المجموعة ضريح القور(بالمغرب الأقصى)والذي يعود تاريخه للقرن السابع ميلادي.

[1] – Camps(G), Aux origines de berberie. Monuments et Rites protohistoriques. Paris 1962, P : 163

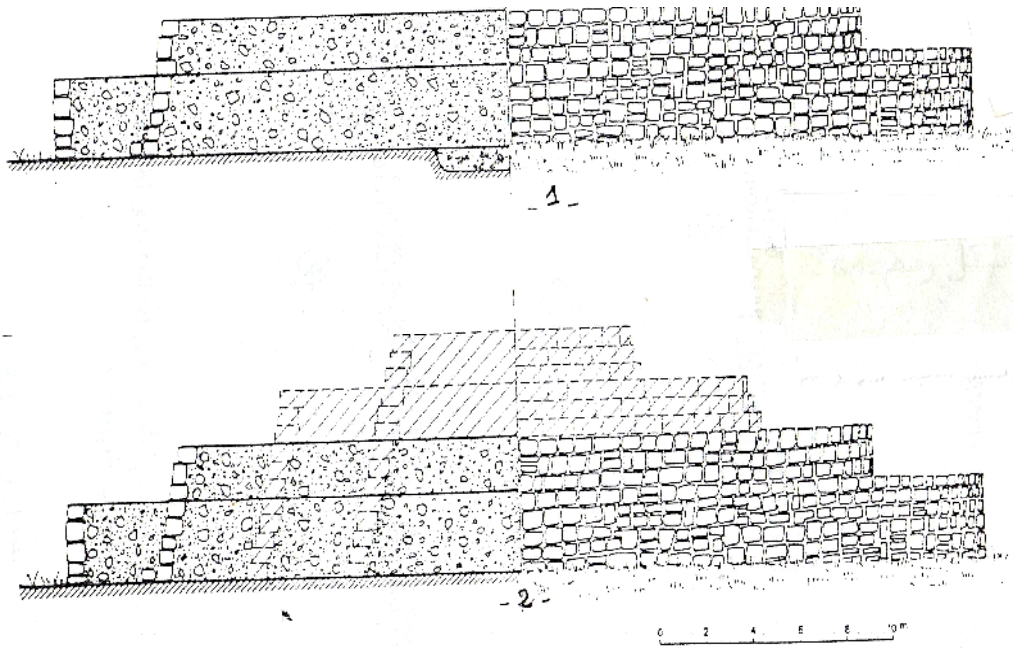

يظهر جليا من خلال هذه المجموعة من الأضرحة و التي رغم حداثة نشأتها مقارنة بالمعالم الأخرى، إلا أنها حافظت على هيئتها الخارجية المتمثلة في بازينا مدرجة وبقيت عمارتها الخاصة، وفية للتقاليد البربرية وفي نفس الوقت تأثرت ببعض العناصر و التقنيات المعمارية، خاصة في نظام الحجارة المنحوتة التي حولت القبر البسيط إلى ضريح كبير.

وأخيرا يمكننا القول بأن التأثيرات الشرقية(الإغريقية والفنيقية)، بقيت سائدة حتى ما بعد سنة ١٤٦ ق.م أي بعد سقوط مدينة قرطاجة.

رغم كل هذا الانفتاح على الحضارات القديمة فالعمارة النوميدية المحلية بقيت مرتبطة إرتباطا وثيقا بالقارة الإفريقية.

ب- الأضرحة الهرمية :

معظم الأضرحة ذات القمم الهرمية تعود إلى القرن الثاني ق.م ، يخضع بناءها إلى نظريات وقواعد مختلفة عن نمط البازينا المتدرجة، مثل ضريح الخروب بالجزائر والذي ينسب إلى الملك النوميدي ماسنيسا.

صورة (12) صومعة الخروب الملقب بضريح منيفيسا .

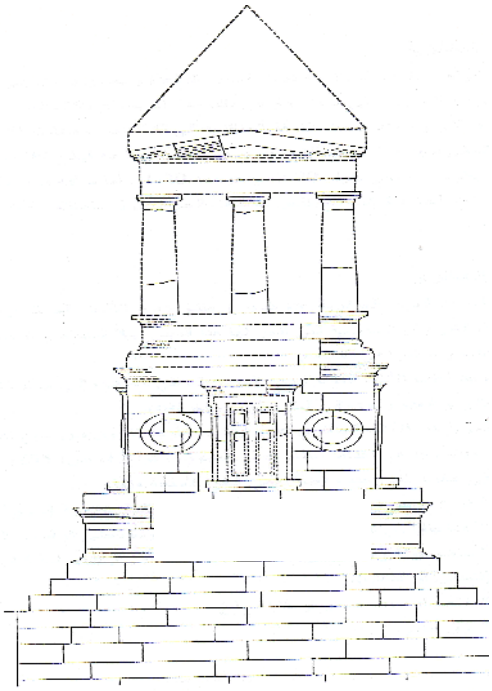

ضريح دوقة بتونس

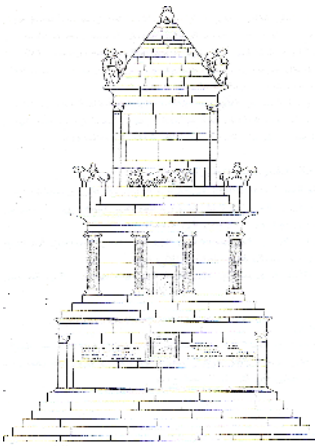

ضريح ليبي- بوني يدعى
العرق بإسم عتبان

والضريح المسمى بالضريح البوني الهيلينستى بسبراطا (ليبيا) ...الخ

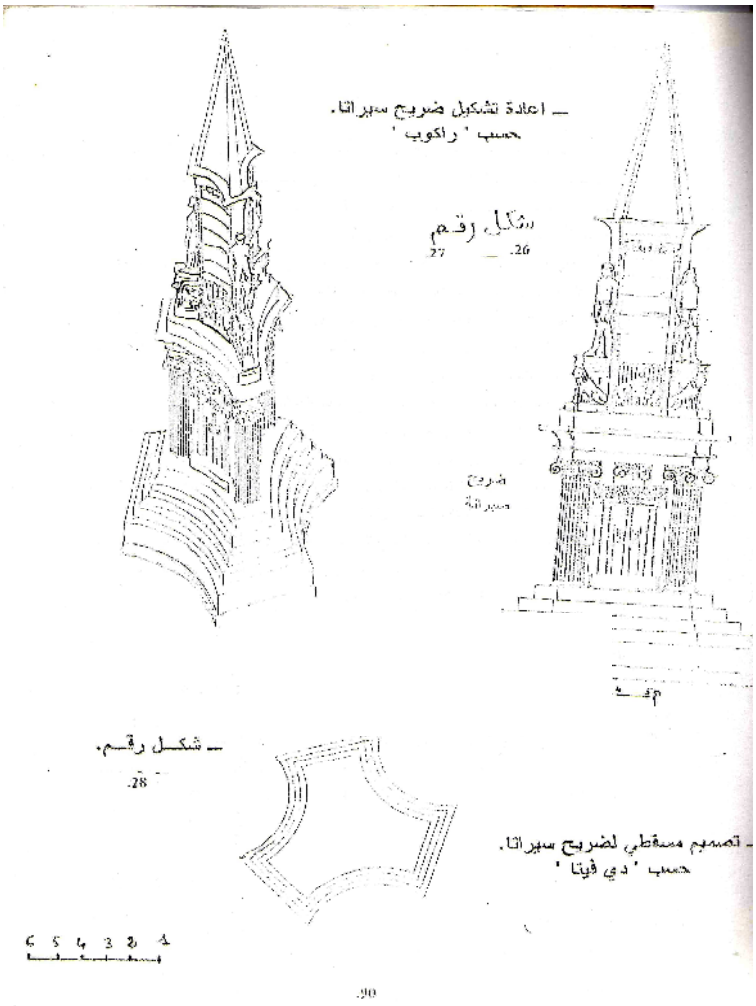

وينسبها جميع العلماء إلى العمارة الليبية البونية، كما يصفها البعض أيضا بالأضرحة ذات التقاليد الليبية البونية أو الإغريقية البونية.فهل تعبر حقا هذه الهوية المزدوجة عن حيوية تقاليد محلية لا تزال تصمد أمام تغلغل الحضارات المتوسطية أم أنها علامة تأقلم ثقافي متقدم في تلك الفترة ؟ على العموم يمكن إفتراض أن أصحاب هذه الإنجازات المعمارية كانوا مزيجا من الإغريق والبونيين و الرومانيين, فمثلا ضريح الخروب يشبه أغلبية الأضرحة التي نجدها في جوانب قبر بمقبرة جبل ملزا بتونس.

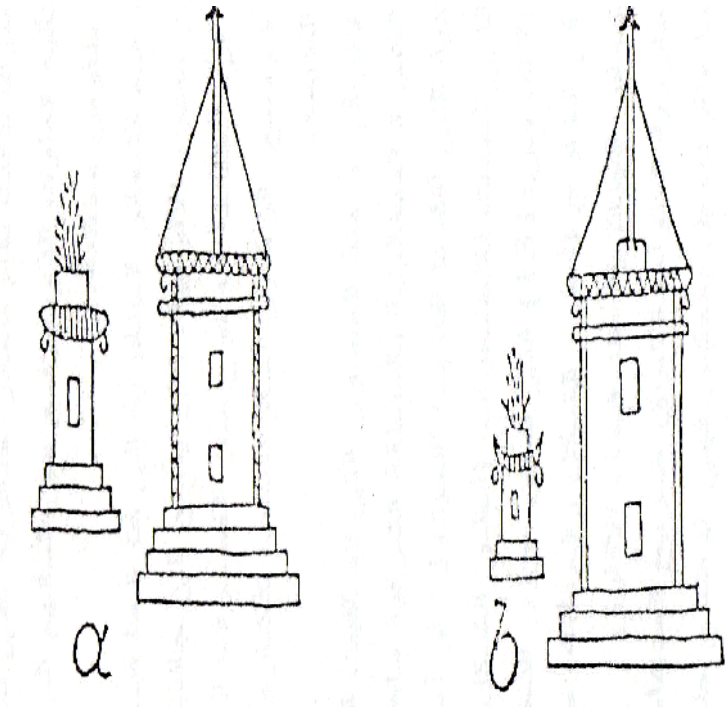

إضافة إلى ضريح دوقة الذي يملك نفس العناصر المعمارية مثل التيجان ذات الطراز الأيوني والنضد Architrave المكون للطوق ذات العنق المصرية. فيما يخص الضريح البوني الهيليستي لسبراطا، فإننا نجد نفس التأثيرات المعمارية.

قد يرى المهندس المعماري الإيطالي "دي فيتا" Di-vita أن تأثير العمارة الإسكندرية على الضريح كان أكثر أهمية من تأثيرعمارة صقلية الإغريقية [1]، صحيح أننا قد نجد التأثيرات المعمارية الإسكندرية بكثرة في العمارة الليبية البونية، لكنها لم تعطيها طابع خاص مثل التأثيرات الإفريقية. إذ نلاحظ أن العمارة الإغريقية الشرقية كان لهما تأثيرا كبيرا في قرطاجة، وعن طريقها انتشرت عبر كامل نوميديا.

كما نجد أيضا نفس الأسلوب المعماري في بعض الأضرحة البونية في كل من هنشير جعوف أو قصر الشنان.

[1] - Di-vita (A), « Il Mausolio Helenestico B di sebratha », dans R.M.A.I, T.83, 1976, P :273

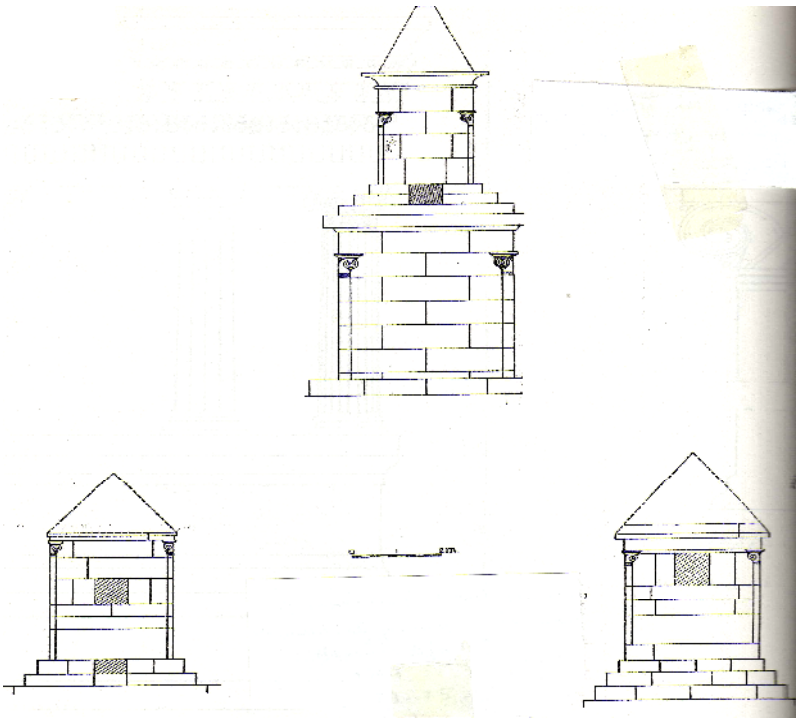

حيث تحمل كلها نفس التقنية ونفس النمط خاصة التيجان ذات الطراز الأيوني.
أما عن التاج الأيوني

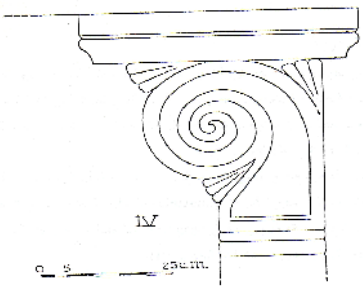

تاج أيولي (منشير الجوف)

يرى الباحثـــان بوانسو و سلومنسون Poinsot et Salomonson [2] أن التيجان الأيولية قد أدخلت إلى قرطاجة في نهاية القرن الخامس أو بداية القرن الرابع

[2]Poinsot IW Salomonson , Monument punique inconnu de Henchir Djaouf 1963, P :75-79

ق.م عبر جزيرة قبرص. لكن هذا النوع من التيجان لم يدم استعماله طويلا في الفترة الرومانية ، حيث لا يوجد إلا نموذجا واحدا يرجع إلى بداية الأمبراطورية والمتمثل في تيجان وركائن الزوايا في القسم الخلفي لناووس (Naos) مخصص للإلاهة "ديميتر" Demeter ،(سيراس Ceres عند الرومان) ويعود تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثاني ق.م بمدينة "توبربوماريوس" Thurburbo – Majus بتونس.

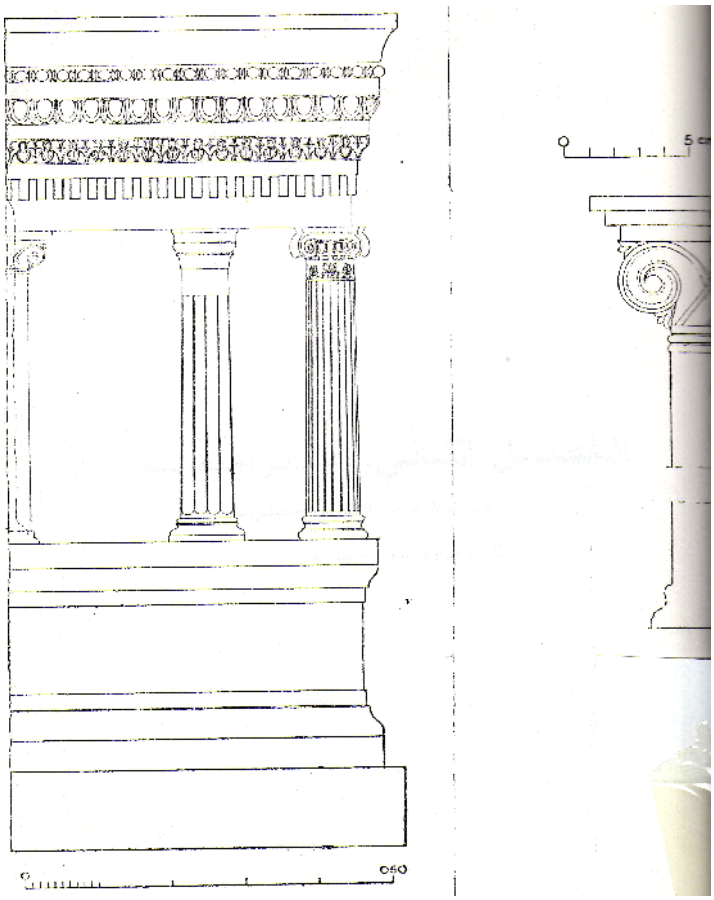

Lezine(A), Architecture punique P : 8 et 11